نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس العشرون

عناصر المحاضرة:

1. حادث الرجيع.
2. مأساة بئر المعونة.
3. غزوة بني النضير.
4. غزوة بدر الموعد.
5. غزوة الأحزاب.

أحداث وغزوات

كان لمأساة أحد أثر سيئ على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضي عليهم وتستأصل شأفتهم.

سرية أبي سلمة:

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة، وعقد له لواء. وباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا في الأمر، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة 4 هـ.

وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد، فلم يلبث حتى مات.

بعث عبد الله بن أُنَيس:

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر ـ المحرم سنة 4 هـ ـ نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن أنيس ليقضي عليه.

وظل عبد الله بن أنيس غائباً عن المدينة ثماني عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالداً وجاء برأسه، فوضعه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه عصا وقال: (هذه آية بيني وبينك يوم القيامة)، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه.

حادث الرَّجِيع:

قدم رجال من عَضَل وقَارَة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وذكروا له أن فيهم إسلاماً، وطلبوا منه يبعث إليهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث عشرة من أصحابه أمر عليهم عاصم بن ثابت، فلما كانوا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم بني لَحْيَان من هذيل، فلحقهم قريب من مائة رام، وأحاطوا بهم وهم في مكان مرتفع، فأعطوهم العهد إن نزلوا أن لا يقتلوهم، فأبى عاصم النزول، وقاتل مع أصحابه، فقتل منهم سبعة، وبقي ثلاثة، فأعطاهم الكفار العهد مرة أخرى، فنزلوا، فغدروا بهم، وربطوهم، فقال أحد الثلاثة، هذا أول الغدر، وأبى يصحبهم فقتلوه، وانطلقوا بالاثنين الآخرين إلى مكة، وهما خُبَيب بن عدي، وزيد بن الدَّثِنَّةِ ، فباعوهما، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر بن نوفل يوم بدر، فاشترته بنته أو أخوه، وسجنوه فترة ثم خرجوا به إلى التنعيم ليقتلوه، فصلى ركعتين فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بي جزع لزدت، ثم دعا عليهم، قال:اللّهم أحْصِهِمْ عَدَدًا، واقتلهم بَدَدًا ، ولا تُبْقِ منهم أحدا، ثم قال فيما قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه، وإنك لفي أهلك؟ فقال: والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكه تؤذيه، ثم قتله عقبة بن الحارث بن عامر بأبيه.

وفي الصحيح أن خبيباً أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رئي وهو أسير يأكل قِطْفًا من العنب، وما بمكة ثمرة.

وأما زيد بن الدثنة فكان قتل أمية بن محرث يوم بدر، فابتاعه ابنه صفوان بن أمية، وقتله بأبيه، وقد نسب إليه ما تقدم من قول أبي سفيان ورد خبيب عليه.

وبعثت قريش ليؤتى بجزء من جسد عاصم، فبعث الله الزنابير فحمته منهم، وكان عاصم قد عهد الله أن لا يمسه مشرك، ولا يمس هو مشركاً في حياته، فحفظه الله بعد وفاته.

وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته .

مأساة بئر معونة:

وفي نفس أيام حادثة الرجيع حدثت مأساة أخرى أشد منها، وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو بمُلاَعِب الأسِنَّة، قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، فدعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد، ولكنه أبدى رجاءه أن أهل نجد يجيبونه إلى الإسلام إذا بعث إليهم الدعاة، وقال: أنا جار لهم، فبعث إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعين داعياً من قراء الصحابة، فنزلوا على بئر معونة، وذهب حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ بكتاب رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه من خلفه حتى أنفذ الرمح، فقال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

واستنفر عدو الله بني عامر فلم يجيبوه، لجوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته بطون منها: رِعْل وذَكَوان وعُصَيَّة، فأحاطوا بالصحابة، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارْتُثَّ من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مُضَر جَزَّ عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي صلى الله عليه وسلم حاملاً معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقَرْقَرَة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يري أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل، فقال :(لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما)، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود ، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير، كما سيذكر.

وقد حزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حزناً شديداً على ما حدث بالرجيع وببئر معونة، وكان الحادثان في شهر واحد - شهر صفر سنة ٤ هـ - ويقال: إن خبر الحادثين وصل إليه - صلى الله عليه وسلم - في ليلة واحدة، فدعا على هؤلاء القتلة ثلاثين صباحاً في صلاة الفجر، حتى أنزل الله عنهم: أبلغوا عنا قومنا: أنا لقينا ربنا، فرضي عنا، ورضينا عنه. فترك القنوت.

دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الَّذينَ قتَلوا أصحابَ بئرِ معونةَ ثلاثينَ صباحًا يدعو على رِعلٍ ولِحيانَ وعُصيَّةَ عصتِ اللهَ ورسولَه قال أنسٌ: أنزَلَ اللهُ في الَّذينَ قُتِلوا ببئرِ معونةَ قرآنًا قرَأْناه حتَّى نُسِخ بعدُ: أنْ بلِّغوا قومَنا أنْ لقينا ربَّنا فرضي عنَّا ورضينا عنه. صحيح ابن حبان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُدٍ جعلَ اللَّهُ أرواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضرٍ ترِدُ من أنهارِ الجنَّةِ وتأكلُ من ثمارِها وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلقةٍ في ظلِّ العرشِ فلمَّا وجدوا طيبَ مأكلِهم ومشربِهم ومقيلِهم فقالوا من يبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنَّةِ نُرزَقُ؟ لئلا يزهَدوا في الجهادِ وينكلوا عن الحربِ فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنا أُبلِغُهم عنكم فأنزلَ اللَّهُ : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ »(آل عمران: 169). شرح البخاري لابن الملقن وروى جماعة المفسرين أن هذه الآية نزلت في شهداء بئر معونة.

غزوة بني النضير:

تآمر بنو النضير مؤامرة أخبث من عضل وقارة، ومن الغادرين بأصحاب بئر معونة. فقد طلبوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجتمع بهم في موضع يسمعون منه القرآن والإسلام، ويناقشونه، ويؤمنون به إن اقتنعوا، فتم الاتفاق على ذلك، وقرر هؤلاء الأشرار فيما بينهم أن يأتي كل رجل منهم بخنجر تحت ثيابه، فيغتالون النبي - صلى الله عليه وسلم - بغتة وعلى غرة، فوصل الخبر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقرر إجلاءهم.

وقيل: لما رجع عمرو بن أمية الضمري - رضي الله عنه -، وأخبر بقتل رجلين من بني كلاب، ذهب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى بني النضير في نفر من الصحابة، ليعينوه في ديتها حسب الميثاق، فقالوا نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا، حتى نقضي حاجتك، فجلس على جنب جدار ينتظر، وخلا بعضهم ببعض، وركبهم الشيطان، فقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد فيلقها على رأسه؟ فانبعث أشقاهم عمرو بن جحاش، ونزل جبريل يخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بما أرادوا، فقام مسرعاً وتوجه إلى المدينة، ثم لحقه أصحابه، فأخبرهم بالمؤامرة وقرر إجلاءهم.

ثم بعث إليهم محمد بن مسلمة يقول لهم: اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجد بعده يضرب عنقه، فتجهزوا أياماً للرحيل، ثم أرسل رئيس المنافقين عبدالله بن أبي: أن اثبتوا ولا تخرجوا، فأن معي ألفين يدخلون معكم حصونكم، ويموتون دونكم: { لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ } وينصركم قريظة وغطفان، وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول - صلى الله عليه وسلم - وكبر أصحابه، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى اللواء عليا، وسار إليهم، حتى فرض عليهم الحصار، فالتجأوا إلى حصونهم، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقطعها وتحريقها، فانهارت عزائمهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، فاستسلموا بعد ست ليال، وقيل: بعد خمس عشرة ليلة، على أنهم يخرجون من المدينة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً، أو يدفع عنهم شراً، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم:{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ} [الحشر: 16]

فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن نخرج عن المدينة.

وسمح لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يحملوا معهم ما يشاؤون من الأمتعة والأموال إلا السلاح، فحملوا ما استطاعوا، حتى قلعوا من بيوتهم الأبواب والشبابيك، والأوتاد وجذوع السقف، وحملوها فيما حملوا، وهذا الذي قال الله عنه: { يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ }[الحشر: 2] ونزل أكثرهم وأكابرهم بخيبر، ونزلت طائفة منهم بالشام.

وقسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرضهم وديارهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف من الأنصار لفقرهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ويجعل ما بقي في سلاح والخيول عدة في سبيل الله، وقد وجد عندهم من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

غزوة بدر الموعد:

ذكرنا أن أبا سفيان كان قد تواعد في أحد على حرب في العام القادم، فلما دخل شهر شعبان سنة ٤ هـ، خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بدر حسب الموعد، وأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، وكان معه ألف وخمسمائة مقاتل، وعشرة أفراس، وأعطى اللواء على بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبدالله بن رواحة.

أما أبا سفيان فإنه خرج في ألفي مقاتل، وخمسين فرساً، حتى انتهى إلى مر الظهران، ونزل على مجنة - ماء مشهور في تلك الناحية - وكان قد أخذه الرعب منذ خروجه، فقال لأصحابه: لا

يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وهذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجعوا ولم يبدوا أي معارضة.

وقد باع المسلمون أيام إقامتهم ببدر ما كان معهم من أموال التجارة، وربحوا درهمين بدرهم، ثم رجعوا وقد هابهم كل عدو، وساد الأمن في كل جانب، حتى مضى أكثر من سنة ولم يجترئ الأعداء على أن يحركوا ساكناً، واستطاع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بفضل هذا الأمن أن يتفرغ لتأمن أقصى الحدود، حتى خرج لتأديب قطاع الطرق إلى دومة الجندل في ربيع الأول سنة ٥ هـ فبسط الأمن والسلام في كل جانب.

غزوة الأحزاب:

كاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يتفرغون لنشر دينهم، وإصلاح أحوالهم، بعد أن ساد الهدوء بفضل ما اتخذه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الخطط الحكيمة، فلم يحصل بعد غزوة بني النضير أي مواجهة تذكر، لفترة تجاوز سنة ونصف سنة، ولكن تلك هي اليهود - الذين سماهم المسيح عليه السلام حيات وأولاد الأفاعي - لم يرقهم أن يستريح المسلمون، فهم بعد ما استقروا بخيبر، واطمأنوا بها أخذوا يدبرون المؤامرات، ويتحركون وراء الستار، حتى نجحوا في جلب جيش عرمرم من قبائل العرب ضد أهل المدينة.

يقول أهل السير: إن عشرين رجلاً من سادتهم وزعمائهم خرجوا إلى قريش، يحرضونهم على غزو المدينة، ووعدوهم بالنصر، فأجابت لهم قريش، ثم ذهبوا إلى غطفان، فأجابوا، ثم طافوا في القبائل فأجاب عدد منها، ثم حركوا هؤلاء القوم جميعاً تحت خطة منسقة حتى يصل الجميع إلى أطراف المدينة في زمن واحد.

الشورى وحفر الخندق:

وبلغ خبر تجمعهم وتحركهم إلى المدينة، فاستشار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، فأشار سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَنْدَقْنَا علينا. وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ هذه الحظة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا.

ففي البخاري عن سهل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتافنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم لا عَيشَ إلا عيشُ الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار).

وعن أنس: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ** فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ** على الجهاد ما بقينا أبداً

وفيه عن البراء بن عازب قال: رأيته صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وقد كابدوا أثناء حفره أنواعاً من المشقة، ولا سيما شدة البرد، وشدة الجوع، وكان يؤتى لهم بملء كف من الشعير، فيصنع بدسم يفوح منها الريح، فيأكلونه، وهو يصعب مروره على الحلق، وشكوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الجوع، وأروه على بطونهم حجراً حجراً كانوا قد ربطوه، فأراهم على بطنه حجرين.

وقد وقعت أثناء الحفر بعض الآيات، رأى جابر شدة الجوع في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يصبر، فذبح بهيمة له، وطحنت امرأته صاعاً من شعير، ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سراً، في نفر من أصحابه، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجميع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا وشبعوا وما زالت البرمة تغط، والعجين يخبز، وذهبت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر لأبية وخاله فبدده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوق ثوب، ودعا أهل الخندق، فأكلوا ورجعوا، والتمر يسقط من أطراف الثوب.

وعرضت لجابر وأصحابه أثناء الحفر كدية شديدة، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضربها بالمعول، فعادت كثيباً أهيل، أي رملاً لا يتمسك، وعرضت لبراء وأصحابه صخرة، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال - بسم الله ثم ضرب ضربة بالمعول فقطع قطعة، وخرج منها ضوء، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، وإني لأنظر إلى قصورها الحمراء الساعة، ثم ضرب الثانية وبشر بفتح فارس، ثم الثالثة وبشر بفتح اليمن، وانقطعت الصخرة.

بين طرفي الخندق:

وأقبلت قريش ومن تبعهم في أربعة آلاف، ومعهم ثلاثمائة فرس، وألف بعير، يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، فنزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف، فنزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد، وكان قدوم هذا الجيش العرمرم إلى أسوار المدينة بلاء شديداً ومخيفاً جداً، كما قال الله - تعالى: { إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) فثبت الله المؤمنين، كما قال (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (22) ، أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) (12)

في ذلك الموقف العصيب اختُبر إيمان المؤمنين ومُحِّص القوم، وعُرف المؤمن من المنافق، واضطربوا اضطرابًا شديدًا بالخوف والقلق؛ ليتبين إيمانهم ويزيد يقينهم.التفسير الميسر

واستخلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المدينة ابن أم مكتوم، وجعل النساء والذرارى في الآطام، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع وتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار.

وبعد أن استقر المشركون وتهيأوا تقدموا نحو المدينة، فلما اقتربوا من المسلمين فوجئوا بخندق عريض يحول بينهم وبين المسلمين، فبهتوا، وقال أبو سفيان: تلك مكيدة ما عرفتها العرب، فأخذوا يدورون حوله في طيش وغضب، يطلبون نقطة يعبرون منها، والمسلمون يرشقونهم بالنبل، حتى لا يقتربوا منه، فيتمكنوا من الاقتحام، أو من إهالة التراب وبناء الطريق عليه.

واضطر المشركون إلى فرض الحصار على المدينة، بينما لم يكونوا مستعدين له، إذ لم يكن ذلك في حسابهم عند الخروج، فأخذوا يخرجون في النهار يحاولون عبور الخندق، والمسلمون يجابهون لهم على طول الخط، يناضلون ويرامون بالحجارة، وقد كثف المشركون جهودهم مراراً، وأداموها طول النهار، واضطر المسلمون إلى الاستمرار في الدفاع، حتى فاتت منهم ومن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصلوات، ولم يتمكنوا من أدائها إلا بعد غروب الشمس، أو قريباً من ذلك، ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت حينذاك.

وقد استاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففي البخاري عن على عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الخندق: (ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس).

وفي أحد الأيام خرج نفر من فوارس المشركين فيهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وغيرهم، فقصدوا مكاناً ضيقاً من الخندق، واقتحموه، وجالت بهم خيلهم في الساحة التي بين الخندق وجبل سلع، فخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فحال بينهم وبين المكان الذي اقتحموا منه الخندق، فدعا عمرو بن عبد ود إلى المبارزة، وكان جريئاً فاتكا، فأغضبه علي حتى نزل من الفرس، فتجاولا و تصاولا حتى قتله علي، وانهزم الباقون وقد ملأهم الرعب، حتى ترك عكرمة رمحه، وسقط نوفل بن عبد الله في الخندق فقتله المسلمون.

وأصيب أثناء المراماة عدد قليل من الطرفين، وبلغ عدد قتلى المشركين عشرة، وقتلى المسلمين ستة.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله(وَهوَ عِرْقٌ في الذِّراعِ إذا قُطِعَ لا يَرْقَأ دَمُه)، فدعا سعد: اللَّهُمَّ إِنَّك تَعلَم أَنَّه لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أن أُجاهِدَهم فيك مِن قَوم كَذَّبوا رَسولَك - صلى الله عليه وسلم -، وَأَخرَجوه مِن وَطنِه مَكَّةَ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّك قَد وَضَعْتَ الحَربَ بَينَنا وَبَينَهم، فَإِن كانَ بَقِيَ مِن حَربِ كُفَّارِ قُرَيْش شَيءٌ فَأبقِني لَه، وَإِن كُنتَ وَضَعْتَ الحَربَ بَينَنا وَبَينَهم "فافْجُرْها"، أي: جِراحَتَه، وَقَد كادَت أن تَبَرَّأ، واجْعَل مَوْتي فيها؛ لأفوزَ بِمَرتَبةِ الشَّهادةِ، فانفَجَرَت مِن "لَبَّتِه"، مِن مَوضِعِ القِلادةِ مِن صَدرِه، وَكانَ مَوضِعُ الجُرْحِ وَرِمَ حَتَّى وَصَلَ الوَرَمُ إلى صَدرِه فانْفَجَرَ مِنه.الدرر السنية وقال في آخر دعائه: ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

غدر بني قريظة وأثره على سير الغزوة:

وكانت قريظة في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد سبق ذكره - فجاء حيي بن أخطب سيد بني النضير، أثناء هذه الغزوة، إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة فحسن له الغدر، وأغراه على نقض العهد، فنقض كعب العهد، وقام إلى جانب قريش والمشركين.

وكانت قريظة في جنوب المدينة، والمسلمون في شمالها، ولم يكن من يحول بين قريظة وبين نساء المسلمين وذراريهم، فكان الخطر عليهم شديداً، وبلغ الخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأرسل مسلمة بن أسلم في مائتين وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة ذراري المسلمين، وأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في رجال من الأنصار يستجلون له الخبر، فوجدوا اليهود على أخبث ما يكونون، فقد جاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقالوا: من

رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فرجعوا وقالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عضل وقارة: "يعني أن قريظة على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع"

وتفطن الناس، فاشتد خوفهم كما قال الله تعالى : { إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) ونجم النفاق حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقال آخرون: { يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا } ، وأراد فريق منهم الفرار فاستأذنوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالوا محتالين: { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } ، وما هي بعورة، {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}.

قلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين بلغه غَدْر قريظة ، فتقنع بالثوب واضطجع، ومكث هكذا طويلاً، ثم نهض وقال: الله أكبر، وبشر المسلمين بالفتح والنصر.

ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة؛ لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة، ولكن كان لابد من إقدام حاسم، يفضي إلى تخاذل الأحزاب، وتحقيقاً لهـذا الهدف أراد أن يصالـح عُيينَة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة بقريش، فاستشار السعدين في ذلك سيدا الأنصار: (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) ، فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًي أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف.

تخاذل الأطراف ونهاية الغزوة:

ولله في خلقه شئون، فقد جاء أثناء هذه الظروف القاسية نعيم بن مسعود الأشجعي، وهو من غطفان، وكان صديقاً لقريش واليهود، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال: أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل، ولكن خذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

فذهب نعيم إلى قريظة، فلما رأوه أكرموه، فقال: تعرفون ودي لكم، وخاصة ما بيني وبينكم، وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، قالوا: نعم، قال: قد رأيتم ما وقع لبني قينقاع، والنضير، وقد ظاهرتم قريشاً وغَطفان، وهم ليسوا مثلكم، فالبلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وأما بلدهم وأموالهم ونساؤهم فبعيدة، فهم إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم، وتركوكم ومحمداً ينتقم منكم كيف يشاء، قالوا: فما العمل؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم توجه نعيم إلى قريش واجتمع برؤسائهم، وقال: تعلمون ودي لكم ونصحي إليكم، قالوا: نعم. قال: فإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، قالوا: نفعل، قال: فإن يهود قد ندموا على نقضهم عهد محمد، وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم معه، فراسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن، ويدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فرضي بذلك، فاحذروهم، وإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك.

وبهذا التدبير الحكيم تشككت النفوس وتشققت، وأرسل أبو سفيان وفداً إلى قريظة يدعوهم إلى القتال غداً، فقالوا، إن اليوم يوم السبت، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن منكم، لكي لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فقالت قريش وغطفان: صدقكم

والله نعيم، وأرسلت قريش إلى اليهود تقول لهم: لا نرهنكم أحداً، واخرجوا للقتال، فقالوا صدقكم والله نعيم، فخارت عزائم الفريقين وتخاذلوا.

أما المسلمون فكانوا يدعون: "اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا" ، وابتهل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه - عز وجل "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم" ... فأرسل الله عليهم ريحا وجنوداً من الملائكة، فزلزلوهم وقذفوا في قلوبهم الرعب، وكفأت الريح قدورهم، وقلعت خيامهم، وضربهم البرد القارس حتى لم يقر لهم قرار، وبدءوا يتهيأون للرحيل.

وأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حذيفة - رضي الله عنه - إليهم، ليأتي بخبرهم، فذهب ودخل بينهم، ثم رجع، ولم يجد مس البرد، بل كأنه كان في حمام - الذي يغتسلون فيه الماء الحميم أي الحار - فلما رجع أخبر برحيل القوم ونام.

"قالَ حُذَيْفَةُ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مع رَسولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - لَيْلَةَ الأحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقالَ رَسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَومَ القِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَومَ القِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَومَ القِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقالَ: قُمْ يا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بخَبَرِ القَوْمِ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إذْ دَعَانِي باسْمِي أَنْ أَقُومَ، قالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بخَبَرِ القَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِن عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّما أَمْشِي في حَمَّامٍ حتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا في كَبِدِ القَوْسِ فأرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، ولو رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي في مِثْلِ الحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فأخْبَرْتُهُ بخَبَرِ القَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فألْبَسَنِي رَسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -مِن فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عليه يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قالَ: قُمْ يا نَوْمَانُ".رواه مسلم

فلما أصبح المسلمون رأوا ساحة القتال من جهة الكفار ليس فيها داع ولا مجيب، فقد { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب:25]

قال السعدي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه، مغتاظين قادرين]عليه[جازمين، بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزبهم، وفرحوا بِعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ. فأرسل الله عليهم، ريحًا عظيمة، وهي ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوَّضت خيامهم، وكفأت قدورهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين. { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية، { وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا } لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحد إلا غَلَبَ، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة، قوتهم وعزتهم، إن لم يعنهم بقوته وعزته. السعدي

كانت بداية هذه الغزوة في شوال سنة ٥ هـ، ونهايتها بعد نحو شهر في ذي القعدة، وكانت أكبر محاولة قام بها أعداء الإسلام لضرب المدينة، وللقضاء عليها، وعلى الإسلام والمسلمين، ولكن الله خيبهم، ورد كيدهم في نحورهم.

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة ؛ لأن العرب لم تكن

تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب: (الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم).

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷الرحيق المختوم المباركفوري.

❸الدرر السنية.